

موضوع المنفى في الشعر الجزائري التشكيل والسمات.

The theme of exile in Algerian poetry: formation and features

زودة فطيمة*

جامعة باتنة-1-

fatima.zouda@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2025-12-03

تاريخ الإرسال: 2025-05-02

ملخص:

شغلت قصائد الشعراء الطافحة بقيم المنفى ضمن ما يسمى حصرا بأدب المنفى حسب رأي النقاد حيزا هاما في الدراسات النقدية المعاصرة، إذ شكلت كتيمة موضوعا هاما سواء لدى المبدع أو الناقد، إذ تزايد الاهتمام بها وفق معطيات أوجبها الظروف السياسية والاجتماعية في الوطن العربي عامة والجزائر خاصة، مما أوجب على الكاتب الاشتغال به لينقل ما يكابده من هموم وآلام ولوعات وحنين وشعور بالغرابة سواء أكان نفيا خارجيا أم زجا في غياهب السجن أم إقامة جبرية أم فرضا لقيم من قبل المستعمر مثل التحدث أو الكتابة باللغة الفرنسية أو اللهات وراء العادات الغربية.

وعلى هذا الأساس جسد الشعراء الجزائريون تجاربهم الذاتية المفعمة بما سلف ذكره تحت مظنة المنفى أيا كان نمطه، على أن هذه تيمة حملت دلالات لها علاقة وثيقة بهذا الشأن مثل: البحث عن الذات، والغربة، والاعتراب، والالتزام، والانتماء... الخ. وهو ما يعكس أهمية هذا العنوان وخصوصيته، وعلى هذا النحو نتساءل: كيف تجلت تيمة المنفى في الشعر الجزائري؟ وما حدود العلاقة بينها وبين الذات الشاعرة؟ وللإحاطة بالموضوع ارتأينا الاستعانة بالمنهجين التاريخي والتحليلي الأنسب لطبيعة الموضوع.

الكلمات المفتاحية: أدب؛ تيمة منفى؛ شعر جزائري؛ ذات شاعرة؛ خصائص

Abstract:

Poems brimming with the values of exile, within what critics call "exile literature," have occupied a significant space in contemporary critical studies. This theme has become an important topic for both creative writers and critics. Interest in it has grown in line with the political and social circumstances in the Arab world in general, and Algeria in particular. This has obliged writers to engage with it to convey the concerns, pain, anguish, longing, and feelings of alienation they endure,

*- المؤلف المراسل.

whether through external exile, imprisonment, house arrest, or the imposition of values by the colonizer, such as speaking or writing in French or pursuing Western customs. On this basis, Algerian poets have embodied their personal experiences, replete with the aforementioned, under the guise of exile, regardless of its form. This theme carries connotations closely related to this matter, such as the search for self, alienation, estrangement, commitment, belonging, etc. This reflects the importance and specificity of this title. In this way, we ask: How has the theme of exile manifested itself in Algerian poetry? What are the limits of the relationship between it and the poetic self? To fully understand the subject, we have chosen to employ the historical and analytical approaches most appropriate to the nature of the topic.

Keywords: Literature; Theme of Exile; Algerian Poetry; Poetic Self; Characteristics

مقدمة:

مر العالم العربي بفترات صعبة بفعل الاستعمار، وبالموازاة مع قيام النهضة نهاية القرن التاسع عشر، أثر ذلك على الجانب الأدبي الذي لم يكن بمنأى عن هذه التغيرات بما أنه المعبر عن الحياة، حيث حمل رجال العلم والأدب لواء الذود عن القيم الوطنية والدعوة إلى الثورة ضد المستعمر، وهذا ما أدى إلى تعرض كثير منهم إلى ممارسات خطيرة بحقهم سواء بالقتل أو السجن أو النفي إلى بلاد بعيدة وحرمانهم من العودة، ولعل هذا الفعل الأخير كان الشرارة لميلاد ما يسمى بأدب المنفى سواء كان نصوصاً نثرية أو شعرية تعكس مرارة الإبعاد والاعتراق والحنين إلى الأهل والوطن، ولعل من المصطلحات القريبة جداً من دلالة النفي الغربية مع فارق أن المفردة الأولى أكثر عمقا واتساعا ذلك أن الغربية قد تكون اختيارية لكن النفي إجباري ولا مجال فيه للعودة.

ومع أن هذا المسمى (المنفى) كوجود أو ممارسة ضارب في القدم خاصة ضمن المجال الشعري سواء ما تعلق بالحضارات الأخرى أو الحضارة العربية بدءاً من العهد الجاهلي وما ولاه من عصور وصولاً إلى الفترة المعاصرة التي بلغ فيها الذروة وشكل موضوعاً دسماً لأقلام الباحثين والنقاد تنظيراً وتطبيقاً، إذن، فكلمة المنفى جسدت في قصائد الشعر العربي القديم، وتفنن الشعراء في عكسها كل حسب ما عايشه أو عاينه، ولا يختلف هذا التجسيد عما هو موجود الآن إلا من حيث القاموس اللغوي وأسلوب الوصف والتصوير.

هذا وتعد تجربة المنفى من أهم القضايا التي أفرزتها ظروف العصر، ودفعت بالشعراء إلى النظم بغزارة ومنهم من مثلت أشعاره في هذا الخصوص أعظم ما كتب طوال مسيرته الإبداعية، وهذه الكلمة أشد التصاقاً بالذات وعكسا لها في كل أحوالها؛ لأنها تمثل ما تشعر

به وتعايشه من صراع وآلام وهموم وحنين، وبفعل طغيان هذه الظاهرة على كتابات الشعراء خاصة ممن عايشوا تجارب شخصية تحولت إلى تيمة بارزة انتقلت من الشعر إلى باقي الأجناس الأدبية خاصة السردية منها كالرواية والقصة، وبما أن حال الشعر الجزائري من حال الشعر العربي عموماً، فقد مر بالظروف ذاتها، وعرف التطورات نفسها وإن كانت بدرجات متفاوتة، ولا يخفى على أحد ما خلفه الشعراء الجزائريون من تراث شعري - سواء ما كان فصيحاً منه أو شعبيّاً - حافل بمثل هذه النماذج التي تعكس ماهية المنفى على اختلاف صوره، وعلى هذا الأساس نتساءل: كيف تجلت تيمة المنفى في الشعر الجزائري؟ وماهي خصائصها الفنية؟ وما حدود العلاقة بينها وبين الذات الشاعرة؟

وللإجابة عن ذلك ارتأينا توظيف المنهجين التاريخي والتحليلي لأنهما الأنسب لطبيعة الموضوع محل الدراسة، ولأشك أننا سندسعى جهداً إلى الإحاطة بحديثات هذه (الظاهرة) البارزة في أنون الشعر الجزائري.

1- دلالات المنفى:

لفهم ما يسمى بأدب المنفى وجب الإحاطة بكل ما طرأ على هذا الأخير من تحولات على مستوى المفهوم والدلالة "ومنه [يمكن القول] إن مفهوم المنفى قد خضع خلال الربع الأخير من القرن العشرين لتحولات وتعديلات عديدة، حيث غادر معناه اللغوي الذي يجعل منه دالاً على (...) الغربة والهجرة والاقتلاع والهجرة والتشريد"¹. على نحو ما ذهب إليه أغلب المعاجم اللغوية، فجاء في لسان العرب: "نفى الشيء ينفي نفياً: تنحى، ونفيته أنا نفياً؛ قال الأزهري: ومن هذا يقال نفى شعر فلان ينفي إذا ثار... وانتفى شعر الإنسان إذا تساقط ... ونفى الرجل عن الأرض ونفيته عنها: طرده فانتفى؛ وانتفى منه: تبرأ. ونفى الشيء نفياً: جحده، ونفى ابنه: أي جحده...، والنفي الإبعاد عن البلد. يقال: نفيت أنفيه نفياً إذا أخرجته من البلد وطرده"².

¹ - فخري صالح، أكتوبر 2007م، "معنى أدب المنفى"، مجلة الكلمة، ع: 10، ص 7.

² - ابن منظور، 2005، لسان العرب، تج: عامر أحمد حيدر، را: عبد المنعم خليل إبراهيم، ج: 8، ط: 1، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 758-759.

وفي المعجم الوسيط: "يقال: نفى الحاكم فلانا: أخرجه من بلده وطرده. ونفيت الحصى عن الطريق ونفى السيل الغثاء، ويقال: نفت السحابة ماءها: أسالته وصبته. (نافاه): عارضه وبأينه. يقال: نفاه فانتهى. وانتفى الرجل: ابتعد عن وطنه مطرودا (المنفى) مكان النفي. (ج) منتف. و(عقوبة النفي): عقوبة بإبعاد شخص خارج حدود بلاده لفترة محدودة، وقد كانت عقوبة النفي مقررّة لبعض الجرائم في التشريع الجنائي (...) ثم ألغيت (...) وقد نصت الدساتير الحديثة على تحريم إبعاد المواطن من أراضيه وطنه أو منعه عن العودة إليها"³.

والمتتبع لمفردة المنفى ضمن الدراسات والمعجمات الحديثة يجد أن معناها لا يخرج عن الدلالات الآتية: الطرد والبعد والنأي عن الوطن والاقتلاع والعزل والتشريد والجحود والنعكران والغربة والاغتراب وهي في مجملها تحمل قيما سلبية.

في حين تجاوزت دلالاته دائرة المفهمة المعجمية المحدودة إلى فضاء أكثر رحابة مستوعبا التجربة الإنسانية في أخص حالاتها، إذ المنفى في الاصطلاح يعني "عزلة تعاش خارج الجماعة بإحساس بالغ الحدة، حيث يشعر بضروب الحرمان لعدم وجود المرء مع الآخرين في الوطن المشترك"⁴.

دون إغفال الإشارة إلى ما أثاره من قيم متضاربة في الآن معا إذ هو "ذو طبيعة معقدة، إنه مفروض ومرغوب، يجري السعي إليه وتفضيل الإقامة فيه، وكذلك ذمه بوصفه حالة الإبعاد والاغتراب الذي يدفع المرء إليه أو يجبر على عناقه (هو بهذا التحديد يبدو) بأنه يقابل فكرة الانفصال والابتعاد عن الوطن أو عن الأصل الثقافي أو العرقي"⁵.

وعلى حسب هذا القول يعد المنفى ذا اتجاهين الأول: مرتبط بكونه إجبار وفرض بالقوة، أما الثاني؛ فيدل على الاختيار ولكن بعد إجبار قبلي؛ بسبب الظروف المحيطة التي تدفع الذات الشاعرة إلى الاتجاه نحو هذا المنفى دون أن تملك خيارا ثالثا.

³ -مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط، ج: 1، إلخ: إبراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، تركيا، ص 943.

⁴ - إدوارد سعيد، 2004م، تأملات حول المنفى، تر: فائز ديب، ط: 1، دار الآداب، بيروت، ص 121.

⁵ - فخري صالح، "معنى أدب المنفى"، ص 1.

وبعض هؤلاء المنفيين يحاولون التأقلم مع محيطهم الجديد، وبناء حياة جديدة، يقول "إدوارد سعيد": "المنفى هو أحد أكثر الأقدار مدعاة للكآبة (...) والمنفى يعيش حالة وسطية لا ينسجم تماما مع المحيط الجديد، ولا يتخلص كلياً من عبء البيئة الماضية تضايقه أنصاف التداخلات وأنصاف الانفصالات وهو نوستلجي وعاطفي من ناحية ومقلد وحاذق أو منبوذ لا يعلم به أحد من ناحية أخرى⁶.

هذا وقد جمع المنفى المعاصر بين التجربة الذاتية ما قبل الحداثية وتجربة النفي القسري والتشريد والاقتراع الذي ولده الاستعمار؛ جماعية أصابت شعوبا وأعرافا بكاملها بحكم ظروف وأسباب عديدة منها الظروف السياسية والاجتماعية... الخ. كل ذلك زاد دلالة المنفى تعقيدا لتصبح "تجربة مجازية تدل على النظر بعيون جديدة إلى العالم وتجارب البشر، وتفاعل الثقافات ومفهوم الحرية والرؤية غير المتحيزة والابتعاد عن مفهوم الهوية المغلقة، وطرح مفاهيم مثل: الأصل والقومية في الآداب الوطنية على بساط البحث مجددا، وقد دخل المفهوم من خلال عدد من المنظرين ونقاد الأدب، بوابة النظرية الأدبية ليصبح من بين المفاهيم الأساسية التي تشكل ما يسمى بآداب ما بعد الاستعمار، بوصف تجربة المنفى عنصرا مشكلا للهوية الخاصة بكل من المستعمر والمستعمر⁷.

وعلى هذا الأساس لم يعد المنفى مجرد تجربة محصورة في مدلولات من قبيل: الغربة والبعد والتشريد والارتحال والشوق والحنين بل اتسع ليشمل مفهومات تحمل قيم الانتماء والهوية والقومية والأصل والأنا والآخر، وصار يقارب كقضية سياسية أيديولوجية أكثر منها اجتماعية.

2- نشأة أدب المنفى:

لكلمة المنفى جذور ضاربة في أعماق التاريخ، ذات صلة بالتمرد والإبعاد والتهجير وغيرها من الدلالات، إلا أن ذلك لم يمنع تجسده كموضوع في قصائد الشعراء قديما، إذ عبروا عن

⁶ - ينظر: إدوارد سعيد، 2007م، صور المثقف - محاضرات ريث 1993م-، ط: 3، تر: غسان غصن، را: منى أنيس، دار النهار، بيروت، ص 57-58.

⁷ - فخري صالح، معنى أدب المنفى، ص 7.

تجارب عايشوها، كما يرجع أغلب الدارسين الظهور الفعلي لأدب المنفى إلى تاريخ الأدب العالمي أثناء الحكم النازي لألمانيا⁸، مرتبطا بدلالات الاستبعاد والطرده والتهجير التعسفي والتغريب.

3- موضوع المنفى في الكتابة الشعرية العربية:

وبتتبع سيرورة هذا المصطلح في الوطن العربي الذي أشرنا إلى بدايته مع الشعر الجاهلي، إذ جسد الشعراء تجارب ذاتية بفعل معاناتهم من المنفى وأصدق مثال على ذلك وقوف الشاعر الجاهلي على الأطلال، إذ ذلك لم يكن مجرد زينة أو جزئية في تركيب كلي هو القصيدة بل "رمزا للجزع الذي يملك الشاعر الجاهلي الذي يدرك ذهاب الحياة وانسيابها المستمر من بين يديه، دون أن يقوى على استبقائها ولو للحظة وربما كان الشيء الذي يستطيعه وسط هذه الأطلال الدوران، وأن يطيل فيها التحديق والتأمل والطواف في جنباتها بالسعي حيناً وبالفكر حيناً آخر، عله يجد شيئاً أو يحصل على شيء يطمئن من نفسه التي لا تعرف الاستقرار والأمن"⁹. إذ كان الجاهلي يرتحل عن موطنه وأهله إلى بلاد بعيدة، وبفعل هذا الابتعاد يحن إلى الأهل والديار وإن كانت خراباً أو أطلالاً¹⁰.

وبحسب مفهوم "إدوارد سعيد": فالمنفى سواء أكان اختيارياً أم إلزامياً في التاريخ القديم، ولا يختلف حال الشعراء في العهد الأموي عنه في العهد الجاهلي إلا بفارق طفيف بفعل تغير ظروف الحياة من نواحي كثيرة، ولا يمكننا أن نقصي تلك النماذج الشعرية في العصرين (العباسي والأندلسي)، إذ خلفت قرائح الشعراء تجارب مميزة عن المنفى والغربة والافتراق والحنين والشوق لأهل والبلدان ومن هؤلاء نجد: "أبو حيان التوحيدي، ودعبل الخزاعي، وأبو فراس الحمداني، والمتنبي وأبو تمام وابن زيدون"¹¹.

⁸- ينظر: هاتف جنابي، مقدمة في المنفى والمهجر، الحوار المتمدن، ع: 1805، 24/01/2007م، 12:20، (www.alhewar.org).

⁹- عزالدين إسماعيل، 1964م، النسب في مقدمة القصيدة الجاهلية، مجلة الشعر، القاهرة، ع: 2، 1964م، ص 7، نقلا عن: عبد القادر عبد الحميد زيدان، 2002م، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ص 210.

¹⁰- ينظر: يحيى الجبوري، 2008م، الحنين والغربة في الشعر العربي -الحنين إلى الأوطان-، ط: 1، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ص 20.

¹¹- عبد اللطيف الوزاري، الأدب والمنفى: هل نحن أمام مهجرة جديدة، 17 جانفي، 2015م، (www.ALQUDS.COM).

مثلت تجارب هؤلاء وغيرهم نماذج شعرية عميقة جسدت في صميمها معاناتهم من ظروف النفي والبعد عن الأهل والوطن ومبلغ الشوق إلى أيامهم الماضية، والشعر العربي عبر مسيرته حافل بقصائد وأشعار لا تحصى تعكس تيمة المنفى وما له صلة بها.

وكما سبق القول؛ فإن موضوع المنفى بشحناته الدلالية عولج منذ القديم ضمن أشعار العرب، وإن كان كممارسة وليس كمصطلح أو كحقل نظيري؛ لأن ذلك أمر حديث شكل تيمة هامة التفتت حولها أقلام النقاد، إذ كان له أثر بالغ في كتابات الشعراء المحدثين بفعل ما تعرضوا له وأوطانهم جراء الاحتلال، ولنا في أشعار العديد من المحافظين في المشرق نماذج صادقة عن تجربة المنفى طافحة بالحنين والألم، منهم: "محمود سامي البارودي" و"أحمد شوقي" وغيرهم كثير¹².

4- ظاهرة المنفى في النص الشعري الجزائري:

إذا تأملنا ظاهرة المنفى في الشعر الجزائري الحديث وجدنا شعراء من التيار الكلاسيكي وفي مقدمتهم "الأمير عبد القادر" خلفوا العديد من النصوص ضمن هذا التوجه، إذ جاءت كتاباتهم متشحة بمسوح الحزن والحنين والشوق ومرارة البعد والنفي سواء أكان ذلك نفيا مكانيا أم داخليا أم وجوديا أم مزدوجا يجمع بين الداخلي والخارجي بفعل ما لقيه الجزائري على يد المستعمر وممارساته الوحشية جعل هؤلاء يحيون النفي والاغتراب حتى وهم داخل أوطانهم، كما أن هناك نفي آخر وهو النفي اللغوي إذ كان من الجزائريين من لا يحسن الكتابة إلا باللغة الفرنسية، بالتالي، فهو يخي نفيا مركزا ومضاعفا وإن كان هؤلاء قد حافظوا على هويتهم وانتماهم ما وسعهم من قوة بعيدا عن الانسلاخ السعي وراء القيم الاستعمارية.

هذا ومثلت أشعار "الأمير عبد القادر" قيمة مضافة ضمن كتابة المنفى، إذ ترك لنا نصوصا تعكس تفاصيل الحياة في المنفى، وتخبط الذات بين المقام الجديد وذاكرات الماضي والحنين والاشتياق للوطن والأهل؛ حيث الغربة أثرت في ذات الشاعر على نحو أكثر عمقا وحدة، وجعلت تجربته أكثر نضجا وقوة وتنوعا، أما من كان ضحية لسان المستعمر، ومنهم الكاتب والمفكر "مالك حداد" الذي عانى كثيرا من تأثيرات المنفى اللغوي، وهو القائل "لقد أراد الاستعمار أن تكون لدي عاهة لغوية"¹³.

¹²-ينظر: نركس كنجي ومجيد صادي مزدي، 2011م، "شعر المنفى والاغتراب لدى محمود سامي البارودي"، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، ع: 1، ص 21.

¹³-مالك حداد، 2005م، الشقاء في خطر، تر: عبد السلام يخلف، ط: 1، منشورات الاختلاف، ص 16.

وفي الشأن ذاته يتحدث "أبو القاسم سعد الله" حول الغربة اللغوية من خلال قوله: "وفي العاصمة أحسست بغربة مهولة، لقد شعرت لأول مرة بالاحتلال يجثم على صدري ويخنقني كان كل شيء يظهر لي غريبا وبشعا، فقد انقطعت صلتي بالكتب والجرائد التي كنت أقرأها وبالأصدقاء الذين كنت أتحدث إليهم بلغتي"¹⁴.

يعكس الشاعر مسألة هامة وخطيرة انتشرت بتأثير المستعمر الذي عمل على طمس الهوية الوطنية التي تعد اللغة أحد مقوماتها الأساسية، إذ رغم أنه يقيم داخل الوطن لكنه يحس بغربة عميقة تنهكه نتيجة حديثه بلغة غريبة عنه.

عدا عن ما كان سائدا حينذاك الذي دفع الشعراء الواعين بخطورة الوضع الذين منهم من يعاني بين جدران السجون أو فرضت عليهم الإقامة الجبرية إلى كتابة نصوص عكست الشعور بالمنفى بكل تجلياته وصوره، فجاءت قصائدهم مشحونة بالألم والأسى والحنين إلى الأهل والأمكنة التي عاشوا حياتهم فيها واستبعدوا عنها إجبارا.

هذا ويتوارد حضور موضوع المنفى في قصائد أو مقاطع أو أبيات منها لشعراء أمثال: (مفدي زكريا، محمد العيد آل خليفة، وأحمد سحنون،... وغيرهم كثير). على نحو جعل منها ظاهرة ملفتة للنظر، وجديرة بالبحث والتحليل من لدن النقاد والباحثين.

ولعل الشاعر "مفدي زكريا" من بين الشعراء القلائل الذين استطاعوا عن جدارة تصوير معاناة الشعب الجزائري سواء خارج السجون أو داخلها وما أعقب ذلك من "ضنك ويأس وخوف"¹⁵، وغيرها من الصور التي تبعث على التغريب الذاتي سواء على المستوى الجمعي أو الفردي؛ أي ذات الشاعر التي تعكس ما تكابده من هموم الاشتياق وآلام البعد والحرمان والتعذيب بشتى أشكاله، وكأن البوح بما تعانيه الذات الشاعرة من كبت المنفى وترسباته أداة للتنفيس أو نوع من التعويض والمواساة.

¹⁴- أبو القاسم سعد الله، 198م، منطلقات فكرية، ط: 2، الدار العربية للكتاب، ص 46-47. نقلا عن: عمر بوقرورة، 1997م، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث، 1963/1945، د ط، منشورات جماعة باتنة، الجزائر، ص 27.

¹⁵- عمر بوقرورة، 1997م، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث 1945م-1962م، د ط، منشورات جماعة باتنة، الجزائر، ص 62.

إذن؛ فمعظم الشعراء الذين جندوا أنفسهم للدفاع عن القضايا الوطنية وتوعية الشعب وتنوير الرأي العام، زج بهم في غياهب السجن أو فرضت عليهم الإقامة الجبرية مما جعلهم يعانون صنوفا من الحرمان والعذاب والغربة داخل الغربة؛ حيث النفي ليس مجرد إبعاد للذات عن موطنها فقط بل إن النفي أيا كان نوعه يجعل متجرعه يحس بمختلف صوره، بالتالي، تكون أحاسيسه أكثر عمقا وتأثرا.

ويعد "محمد العيد آل خليفة" أحد الذين عبروا عن محنة الشعب مع الاحتلال في نصوصه الشعرية عبر عكس الواقع المفعج والمأساوي لتفرض عليه هو الآخر الإقامة الجبرية ببسكرة كنوع من المنفى الداخلي حيث منع من السفر أو ملاقة الأهل والأصدقاء، ورغم صعوبة ذلك وتأثيره العميق في نفسه إلا أنه لم يضعف بل واصل التعبير بقوة عن شعور المنفى ولوعة الغربة عاكسا لوحات دلالية صادقة تشهد على فضاغة الاستعمار الغاشم.

ولا شك أن الذات الشاعرة وهي في منفاها تحاول بث ما تعانيه من ألم الفراق والحنين والرغبة الشديدة في لم الشمل وعودة الحياة إلى ما كانت عليه، ولا سبيل إلى إيصال مشاعرها ومكنوناتها وتخفيف شدة المنفى أيا كان نوعه إلا الشعر.

هذا فيما يخص القصيدة في طورها الكلاسيكي التي لم يتوان فيها الشعراء عن عكس تجاربهم الواقعية مع المنفى بأنواعه، وقيامهم بوصف كل كبيرة وصغيرة مما قاسته ذواتهم، إذ منهم من نفي خارج الوطن كالأمير عبد القادر ورفاقه، ومنهم من وضع في سجن بعيدا عن مسقط رأسه أو تحت الإقامة الجبرية مع منعه من الاتصال الخارجي تحت أي شكل كان، ولنا أن نتخيل مدى تأثير ذلك على الذات وانعكاسه على القول الشعري، فالمنفى يبقى في دلالاته كما مهما اختلف نوعه ولا يقتصر كما قلنا سابقا النفي على السجن أو الإبعاد والغربة بل يضاف إليه ما يسمى بالنفي اللغوي (الغربة اللغوية)، وإذا كان الأمر كذلك مع الشعراء المحافظين فإنه لا يختلف الأمر مع القصيدة المعاصرة مع دعاة التغيير والتجديد الذين تأثروا بما دعا إليه شعراء المشرق من وجوب الثورة على التقليد الشعري أو على النظم العمودي بدعوى أنه لم يعد قادرا على التعبير عن الحضارة وأن قيود القافية هي أكبر معيق للشاعر للنظم، وبما أن تلك القيود مثلما يسمونها لم تعد تشكل قيودا أمامه، فإنه بإمكانه تجسيد أفكاره على نحو أكثر مرونة وعمقا دلاليا.

ومما لاشك فيه أن الشاعر الجزائري قد صور الواقع بما فيه سواء على المستوى الذاتي أو الجمعي أو الكون إطلاقا، وسواء أثناء الاستعمار أو بعد نيل الاستقلال، إذ بقي

شعور الغربة يراود هؤلاء سواء من كان منهم داخل الوطن أو خارجه، ومن أبرز من عكسوا معاناة الذات وهي تعيش في المنفى سواء أكان روحيا أم واقعيًا ملموسًا متخذين من التيار الرومانسي اتجاهًا خاصًا لهم نجد: "أبو القاسم سعد الله" و"مصطفى محمد الغماري". وبفعل تلك النصوص الشعرية الطافحة بالحقائق المرة التي عانى منها أفراد الشعب ولم يسلم منها إلا من كان في صف المستعمر تحولت الذات الشاعرة إلى مرآة عاكسة تعانين عبرها تاريخًا مثقلًا بالآلام والمعاناة والأحزان والغربة.

إن الذات الشاعرة لا تحس بالحنين إلى من خلفتهم وراءها أو أبعدت عنهم سواء أكان ذلك الأهل والأصحاب أم الموطن بل تكتوي بنار الغربة والقمع والتضييق دون أن تملك وسيلة لتغيير حالها وإعادة الأمور إلى نصابها فهي لا تملك سوى التمني والشعر لتعبر عما تكابده من هموم وانكسارات، ومع الانفتاح على التجريب والتجديد، وبروز تيارات مختلفة منبثقة من صميم المضامين والصياغة اللغوية والرؤية الشعرية عدت الذات الشاعرة موضوع المنفى كمنفذ للتطرق إلى قضايا أخرى مثل البحث عن الذات وسبل التواصل مع الآخر، ومع مرور الوقت اتسعت دلالة النفي لتضم مجالات عدة وتكون أكثر انفتاحًا ولعل من الأنماط المشاعة في وقتنا الحالي هم منفيو المجال السياسي خاصة، إذا كان المبدع ينصب نشاطه في إطار يتصادم مع السلطة كليًا أو جزئيًا، إذ عد بعضهم هذا الاختلاف التصادمي "سببًا في منفى عديد من الكتاب والمثقفين في البلدان العربية كانت ولا تزال تسعى جاهدة لتشويه قضية المنفيين على أنهم مجموعات مغامرة أو مترفة قد باعت نفسها للأجنبي"¹⁶.

والمتتبع للأدب الجزائري نثرًا وشعرًا يجد أن العديد من الكتابات تعكس حقيقة الشعور بالمنفى بشتى صوره وتجلياته، وكذا الدلالات ذات الصلة به كالعزلة والافتراق إذ تدور في مجملها ضمن المجال نفسه ولا تخرج عنه.

كما أن الذات وهي تحترق بنار المنفى سواء أكان ذلك اختيارًا أم قسرًا تنحو إلى تنفيذ رؤيتها الفكرية والسياسية والاجتماعية وقناعاتها الشخصية دون مانع لذا تراها تقاوم بكل ما أوتيت من قوة في سبيل العودة إلى تلك المواطن التي رأوا النور فيها وترعرعوا في جنباتها بين الأهل والأحباب، ولذا تجد أشعارها تفيض شاعرية طافحة بالأحزان والبكائيات والأشواق.

¹⁶- هاتف جنابي، "مقدمة في المنفى والمهجر"، الحوار المتمدن، ع: 1805، 2007/01/24م، 12:20.

إن الذات الشاعرة وهي في المنفى لا تعيش اغترابا مكانيا أو داخليا فقط بل على جميع المستويات، ويظهر أثر ذلك في تلك الدوال المتشحة بكل العواطف والمذلولات المتضاربة والمتعددة الدلالات التي تعكسها، وفي ذلك إشارة إلى التزامها التعبير عن قضايا الفرد والجماعة والوطن دون إقصاء لأي طرف.

ولا يدخل ضمن دائرة أدب المنفى حسب رأينا سواء أكان كتابة نثرية أم شعرية نصوص أولئك المبدعين الذين يعيشون خارج الوطن بإرادتهم وليس بفعل النفي السياسي أو الهروب من القمع السلطوي أو حتى تلك الإبداعات المكتوبة بلغة الآخر اختيارا لا جبرا.

5- من سمات شعر المنفى الجزائري:

وإذا عدنا إلى الكتابة الشعرية الجزائرية والمجسدة لتيمة المنفى فلا شك أن لهذا النوع من النصوص خصوصية متعلقة بالتشكيل والسمات والدلالة؛ فالشاعر يوظف قاموس لغوي خاص يعكس بعمق مدلولاته المفعممة بالأحزان والمعاناة والحنين إلى الماضي والأهل والوطن والشكوى والغربة وغيرها من المشاعر، مدعما ذلك بموسيقى مفعمة بالطابع الرومانسي تأخذ من النفوس مأخذها، ولتحقيق التأثير المطلوب تراه يستعين بأي تقنية من شأنها المساهمة في ذلك، دون أن يكون مدار حديثه مقتصر على ما يصيب ذاته بل تراه يعبر عن كل ما له علاقة بالجماعة والوطن في كل حالاته وتقلباته.

وبما أن شعر المنفى مرتبط بالتجربة الشخصية الذاتية ولا يخرج عن فلكها، كما هو متعلق بالشوق والحنين إلى الوطن والأهل، ولذا ترى الشاعر يعيش الحاضر في منفاه بمأساه، ويحن إلى الماضي، ويتطلع إلى المستقبل منتجا معاني غاية في الرهافة والعمق¹⁷، لها تأثير بالغ في ذات القارئ ليس فقط لما سبق قوله ولكن لصدقها وواقعيتها وموسيقاها المتشحة بأدوية الحزن والألم¹⁸.

¹⁷- ينظر: محمد الشحات، 2006م، سرديات المنفى- الرواية العربية بعد عام 1967م-، ط: 1، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، ص 147.

¹⁸- ينظر: فاطمة طحطح، 1993م، الغربة والحنين في الشعر الاندلسي، ط: 1، مطبعة النجاح الجديدة، دار البيضاء، ص 144.

الخاتمة:

وكخلاصة لما تم الحديث عنه أنفا يمكن القول: إن شعر المنفى كدلالة قديم قدم الشعر؛ لأنه مرتبط بالذات وما يطرأ عليها وما تحياه من غربة واغتراب أو سجن أو نفي وإبعاد عن الوطن والأهل والأصحاب، أما كمسمى أو موضوع خص بالمتابعة النظرية والتطبيقية من لدن الباحثين أو النقاد، فهو موضوع حديث ظهر أواخر القرن التاسع عشر.

شعر المنفى لا يتعلق فقط بذلك المنظوم خارج وطن الشاعر إذ هو مرتبط أيضا بذاك الصادر عن الذات الشاعرة وهي في سجنها أو إقامتها الجبرية، أو حتى وهي تئن تحت وطأة السجن اللغوي أو ما يسمى بالمنفى اللغوي.

صدور شعر المنفى عن عاطفة ذاتية صادقة وإحساس بالغ الرهافة ينضج حزنا وألما وحنينا إلى الأهل والوطن والأصحاب.

الشاعر يوظف قاموسا لغويا خاصا يعكس دلالات الأوضاع المريرة للحياة في المنفى، وكذا إيقاعا موسيقيا مفعما بالدرامية ومسوح الألحان الحزينة لزيادة التأثير على المتلقي.

لدلالة المنفى علاقة وثيقة بدوال كالغربة والاعتراب والانتماء والتمرد والالتزام والحنين.. الخ. فالشاعر دائم الإحساس بالغربة والفقد والألم والاشتياق.

الشعر الجزائري غني بنماذج شعرية تجسد المنفى وتعكس ماهيته سواء ما كان في فترات قديمة أو في العصر الحديث مع أصحاب التيار المحافظ وجماعة المجددين.

مثلت نصوص " الأمير عبد القادر " ومفدي زكريا ومحمد العيد آل خليفة... الخ. نماذجا جسد عبرها موضوع المنفى بكل تجلياته وسماته الفنية الجمالية.

هناك علاقة وثيقة بين الذات الشاعرة وبين تيمة المنفى، إذ الشاعر يعبر عما يختلج في دواخله ويعكس مرارة الحياة بعيدا عن الأهل والخلان والوطن، وهو في صموده يوجه رسائل قوية للآخر مبديا رغبته في المقاومة في سبيل تغيير الأوضاع المزرية نحو الاحسن أو على الأقل على ما كانت عليه آنفا.

مثل المنفى بالنسبة للبعض من الشعراء الجزائريين نمط حياة لم يستطيعوا التخلص منه حتى وهم يقبعون داخل سجونهم وليس خارج الوطن لينعكس إيقاعا حزينا تعزف مقطوعاته ذات الشاعر.

تحول المنفى إلى نتيجة حتمية أمام الشعراء في الجزائر الذين يقفون أمام الظلم والاستبداد بشموخ وعناد.

المراجع:

- 1- إدوارد سعيد:
2007م، صور المثقف -محاضرات ريث 1993م-، ط: 3، تر: غسان غصن، را: منى أنيس، دار النهار، بيروت.
- 2004م، تأملات حول المنفى، تر: ثائر ديب، ط: 1، دار الآداب، بيروت.
- 2- فاطمة طحطح، 1993م، الغربة والحنين في الشعر الاندلسي، ط: 1، مطبعة النجاح الجديدة، دار البيضاء.
- 3- فخري صالح، أكتوبر 2007م، "معنى أدب المنفى"، مجلة الكلمة، ع: 10.
- 4- أبو القاسم سعد الله، 198م، منطلقات فكرية، ط: 2، الدار العربية للكتاب، ص 46-47.
- نقلا عن: عمر بوقرورة، 1997م، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث، 1963/1945، د ط، منشورات جماعة باتنة، الجزائر.
- 5- عبد اللطيف الوراري، الأدب والمنفى: هل نحن أمام مهجرية جديدة، 17 جانفي، 2015م، (WWW.ALQUUDS.COM).
- 6- عزالدين إسماعيل، 1964م، النسب في مقدمة القصيدة الجاهلية، مجلة الشعر، القاهرة، ع: 2، 1964م، 210.
- 7- عمر بوقرورة، 1997م، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث 1945م-1962م، د ط، منشورات جامعة باتنة، الجزائر.
- 8- مالك حداد، 2005م، الشقاء في خطر، تر: عبد السلام يخلف، ط: 1، منشورات الاختلاف، الجزائر.
- 9- محمد الشحات، 2006م، سرديات المنفى- الرواية العربية بعد عام 1967م-، ط: 1، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان.
- 10- ابن منظور، 2005، لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، را: عبد المنعم خليل إبراهيم، ج: 8، ط: 1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- مجمع اللغة.

- 11-نركس كنجي ومجيد صادي مزدي، 2011م، "شعر المنفى والاغتراب لدى محمود سامي البارودي"، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، ع: 1.
- 12-هاتف جنابي، مقدمة في المنفى والمهجر، الحوار المتمدن، ع: 1805، 2007/01/24م، (www.alhewar.org)، 12:20.
- 13-يحي الجبوري، 2008م، الحنين والغربة في الشعر العربي –الحنين إلى الأوطان-، ط: 1، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان.